حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٦ (عدد إبريل – يونيه ٢٠١٨)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

ذاكرة الانكسار وانكسار الذاكرة: دراسة في علاقة الحدث السياسي بتطور الرواية العربية

عادل خميس الزهراني *

أستاذ النقد الحديث المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

المستخلص

يدرس هذا البحث الأثر الذي تركته الأحداث السياسية المتعاقبة منذ الاتصال بالغرب في العصر الحديث على تكوين ونمو الخطاب الروائي العربي. يتتبع البحث بشيء من الوصف والتحليل العلاقة بين الهزائم وخيبات الأمل العربية وبين بروز الرواية العربية كجنس أدبي حديث؛ ساهمت هذه العلاقة في سيطرة حالة من الإحباط على الظاهرة السردية العربية، حتى أضحت الرواية ذاكرة للانكسار في التاريخ العربي الحديث. مثلت الرواية خطاباً موازياً للأحداث منذ نكبة فلسطين، وحتى تحطم الأحلام القومية إثر هزيمة ١٩٦٧، ويظهر هذا الخطاب ردة فعل المجتمعات العربية على هذه الهزائم المتعاقبة، ومدى تجذر حالة الانكسار واليأس في الوسطين الفكري والأدبي. يحلل البحث عدداً من أهم الأعمال الروائية التي ألفها روائيون من مختلف بلدان العالم العربي مواكبة للتطورات السياسية والاقتصادية والعسكرية، كما يقف على آراء ووجهات النظر التي قدمها عدد من النقاد والمؤرخين والمنظرين لفن الرواية العربية حول القضية.

كلمات مفتاحية: الرواية، الذاكرة، الخطاب، الأحداث السياسية، الانكسار.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

مقدمة:

يقرأ هذا البحث مراحل تطور فن الرواية العربية بناء على علاقتها بالحدث السياسي وأثره في تكوين الخطاب السردي؛ يتفق الباحثون على أن دخول العالم العربي إلى ما يسمى 'العصر الحديث' جاء عبر صدمة حضارية تمثلت في الاحتكاك المباشر بالعالم الغربي. وحينما برزت أطماع هذا العالم في السيطرة على مقدرات العالم العربي، أصبحت علاقة العرب بالغرب مصدراً من أهم مصادر التوتر والصراع. يأخذ هذا الصراع اتجاهين رئيسين في ذاكرة العربي: صراعه السياسي والاقتصادي والثقافي مع الغربي المستعمر، وصراعه مع ذاته وهو يقارن بين التطور الواضح الذي وصل إليه الغرب و بين الوضع المتردي لعالمه العربي. لقد كانت هذه المعادلة الصعبة – وأحسبها لا تزال- نقطة مركزيةفي أزمة الفكر العربي الحديث؛ فالتردد بين مواجهة الغربي بصفته مستعمراً والترحيب به كمصدر وحيد للتطور العلمي والثقافي، أفضى إلى عدم تمكن العرب من صياغة استراتيجية واضحة للتعامل مع الغرب عموماً من جهة، وعدم التوصل إلى حلول ناجعة للإشكالات والقضايا العالقة.

في هذا الجو المشحون ظهرت الرواية لتمثل ذاكرة لخيبات الأمل المتعاقبة؛ تثبت الصفحات المقبلة الارتباط بين نمو الخطاب الروائي والنكسات المتكررة للواقع العربي، خصوصاً في مرحلتها الأولى التي تنتهي في سنين ما بعد النكسة. تبرز الرواية كمنتج سردي فعال في العالمين: عالم السرد وعالم الواقع معا، حيث تعد أحد أهم الفنون السردية نضجاً في تصوير وقراءة الواقع. يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي في الأساس، والمنهج التحليلي أحياناً، لدراسة ظاهرة التطور الروائي، على المستوى الفني وعلى مستوى الخطاب، وارتباط هذا التطور بالانتكاسات العربية، لتصبح إثر ذلك ذاكرة للانكسار العربي، كما تمثل صورة لانكسار الذاكرة العربية، التي لم تعد ترى في الأفق غير اليأس والشتات.

صدمة العصر وتشكيل الذاكرة

تنوء الذاكرة العربية بحمل ثقيل من الأحداث المؤلمة والجروح الخالدة، ورغم ذلك فقد ظلت هذه الذاكرة – لسنين طوال – منزوية لا تجرؤ على الخروج للعالم إلا على استحياء في شكل قصائد وقصص متناثرة في كتب التاريخ، وقد يعود ذلك ربما لأن العرب تستحي من الهزيمة، وترفض الاعتراف بها، وربما لأن اليأس قد تمكن من روح الأمـة، فلم يعد لرصد تلك الذاكرة – ذاكرة الألم – أي سبب وجيه.

ظلت الذاكرة كذلك، وتوالت السنين، ودارت الدوائر على الأمة الإسلامية والعربية، ومنيت بهزائم معنوية عنيفة، توجت بالحملات الصليبية وتشتيت الوحدة الإسلامية، فأصاب العرب ما أصابهم من ذل وضعف وانكسار. ثم جاء الاستعمار لينقض على الدول العربية، ويجثم على شعوبها، ويستنزف خيراتها فكان كالصدمة التي أيقظت الضمائر النائمة وحركت المشاعر الميتة، ما آذن ببداية عصر جديد.

تظهر الصدمة العربية في أعمال الرواد الذين عاصروا تلك المرحلة، ويبرز اسم رفاعة الطهطاوي وكتابه (تخليص الابريز في تلخيص باريز) كأحد أهم الأمثلة في هذا السياق؛ قام الطهطاوي بوصف طبيعة الحياة في فرنسا، وتحدث عن تفاصيل المجتمع هناك متطرقاً إلى أزيائهم وطعامهم وقوانينهم وأساليب حياتهم العملية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية،[1] لذلك يعد الكتاب" أول نموذج من سلسلة من الكتب السردية التي يسجل فيها أولئك الذين زاروا أوروبا انطباعهم حولها".[2]

يمثل (تخليص الإبريز) - في رأيي - النواة الأولى لذاكرة الهزيمة المكتوبة، فرفاعة الطهطاوي عاش الحياة الأولى منكفئاً على نفسه، راضياً- بشكل أو بآخر- ما استكان إليه من مكانة لا تكاد تذكر، حاله في ذلك حال أمته التي نهشتها النكبات وفعل بها اليأس فعلته، حتى غدت في حال لا تسر. وتشاء الأقدار أن يسافر رفاعة إلى فرنسا، فيصدم بما يراه من تقدم وتمدن وحضارة، سبق فيها العالم وطنه القابع في تأخره، وتثير الصدمة مشاعر الهزيمة التي اختزلها داخله، وما كان من تلك المشاعر إلا أن شحذت قريحته لتسجيل كل ما يراه مما وصل اليه الغرب وأدى إلى انتصاره وعلو كعبه على وطنه. إن ذاكرة الطهطاوي في كتابه ذاكرة إيجابية، ورغم الافتتان المسيطر عليها، إلا أنها سجلت نفسها وثيقة للتغيير، ولم تركن للمقارنات والتحسر على ما آلت إليه الأمة.

مر زمن الطهطاوي وتوالت الأجيال تسير على خطاه، لكن الأمة مازالت في صراعها المرير مع الحاضر، فلقد امتدت غفلتها كثيراً مما جعلها تتخلف كثيراً عن الركب وتحتاج للكثير والكثير من الجهد والوقت لتدارك الوضع والنهوض من جديد. كما أن الصراع مع المستعمر احتدم وخلف نكسات متتالية تركت أثرها في كل شيء، فاحتلت بريطانيا مصر، وهي صدمة كبرى تركت أثراً بالغاً في نفوس ابناء الأمة حتى كتب محمد المويحلي (حديث عيسى بن هشام)، كمحاولة سردية لنقد الواقع والسخرية منه بأسلوب تراثي يتلخص في فن المقامة. كذلك جاء محمود طه الحقي ليكتب (عذراء دنشواي) الرواية التي تستمد مادتها من "حادثة تاريخية حقيقية تجسد لنا صورة الاستعمار الإنجليزي البغيض، وعنفه في معاملة المصريين، والفلاحين منهم بخاصة ".[٣]

وبذلك تكون المأساة والشعور بالهزيمة هي الدافع الرئيسي لرواية عذراء دنشواي، كما أن رواية (زينب) لمحمد حسين هيكل تمثل "خطوة فائقة الأهمية على المسار المستمر لتطوير الرواية"،[٤] ويعدها الباحثون أول رواية عربية على النمط الروائي الأدبي الحديث، تنطلق من الشعور ذاته، لكنها تجعل من الركون للماضي بعاداته وتقاليده الجامدة سبباً في الهزيمة واليأس اللذين وصل إليهما الوطن العربي.

فن الرواية وملامح الانكسار

يؤمن كثير من الباحثين أن فن الرواية فن غربي النشأة، وأن وكتاب الرواية العربية قد اتكأوا على الرواية الغربية اتكاءً مباشراً في كتابتهم لأعمالهم الروائية. بل إن بعض الآراء تذهب إلى "أن التراث لم يشكل قاعدة او منطلقاً للرواية العربية الحديثة، وأن الموروث لم يفد أبداً كتابنا المعاصرين ".[٥] وكما أشير سابقاً، فإن العلاقة بالغرب كانت الجَرَس الأقوى لإيقاظ الأمة من سباتها العميق، ولكن تلك العلاقة لم تكن علاقة ود واتفاق، بل كانت علاقة صراع دائم؛ طمع غربي، وكره وضغينة عربية.

من هنا حمل الاعتماد على فن الرواية – الفن الغربي البحت- للتعبير عن هذا الصراع وما واكبه من ثورات ومعارك مفارقة لا تخلو من دلالة؛ أن تعبر عن نكسات كان عدوك الأول فيها هو الغرب، معتمداً على فن غربي الأصل، أمر له رمزية في سياق دلالة الانكسار؛ يشبه ذلك كثيراً بيان اعترافٍ كامل بالهزيمة، وربما بيان استسلام لها أيضاً.

وجاء الإعلان عن قيام دولة إسرائيل في فلسطين عام ١٩٤٨م، تتويجاً وإيذاناً ببدء مرحلة جديدة في الصراع العربي الغربي. وفي الفترة بين وعد بلفور ونكبة ٤٨ يبرز اسم توفيق الحكيم كأحد أهم الأعلام التي ظهر أثر الهزيمة جلياً في أعمالها، وذلك من خلال روايتيْ (عودة الروح١٩٣٣م، وعصفور من الشرق –١٩٣٨م) حيث يذهب في (عودة الروح) إلى أن "الشعب المصري الآن ليس غير الشعب الفرعوني القديم"،[٦] وهو بذلك يبتعد عن فكرة الوحدة العربية، لأنها- في نظره- ليست الدافع الحقيقي لثورة الشعب المصري، وهو ما قد يكون أثراً من آثار النكسات المتتالية للعروبة. لذلك يذهب الحكيم في

(عصفور من الشرق) إلى "نفي وجود عالم عربي قائم بذاته، محافظ على كيانه، يستطيع أن يقوم بالمواجهة المحتومة بين الكتلتين الشرقية والغربية".[٧]

قبل توفيق الحكيم كان جرجي زيدان قد بدأ استلهام التاريخ استلهاماً مباشراً حين شرع يكتب رواياته التاريخية مستلهماً "التاريخ العربي في العصر الإسلامي وفتوح الأمويين والعباسيين حتى عصر صلاح الدين الأيوبي وشجرة الدر كما دار بعضها حول الأركان التي قامت عليها مصر الحديثة".[٨] عودة زيدان للماضي تشير إلى هروبه من حاضر الانكسار، ولعله كان يتلمس في التاريخ أسبابَ الرفعة والنصر مشخصاً في الوقت نفسه الداء الذي أودى بالأمة إلى تلك الحالة من الضعف والهوان.

ونجد صوراً أخرى لانكفاء الذاكرة الروائية -غير العودة إلى الماضي كما لوحظ عند الحكيم وزيدان-، تتلخص بعضها في سيطرة العنصر الغربي على الرواية العربية كما هو ملاحظ عند شكيب الجابري الذي أصدر أولى رواياته (نهم)[٩] عند عودته من أوروبا، وفيها "نجد السيطرة الكاملة للعنصر الغربي. تدور في جو غربي تماماً. موضوعها يوضح أحد الأقوال السائرة للشاعر الألماني جوته".[١٠] وتتناول روايات أخرى انكسارات وخيبات أمل خاصة أو وطنية كما هو الحال عند الروائي محمود أحمد السيد في روايته (جلال خالد) التي نشرت بعد ثماني سنوات من إجهاض ثورة العراق عام ١٩٢٠م. تدور أحداث الرواية حول شاب يسمى جلال خالد، يبتعد عن وطنه ويذهب إلى الهند، ثم يعود ليشاهد فشل الثورة في بلاده، مما يدفعه إلى النضال من أجل وطنه بشتى الطرق، فيصدر مجلة فكرية يدافع عن حقوق المضطهدين من العمال وابناء الطبقة النامية في بلاده دفاعاً شرساً.[١١]

ويختار الروائي التونسي محمود المسعدي الرمزية للتعبير عن حالة الانكسار هذه، فنجده في روايته (مولد النسيان) يستخدم الموت والحمى والكفاح في البحث عن دواء وأعشاب النسيان كرموز لتصوير وضع الأمة المرير، وإن كانت الرواية في ظاهرها تحكي قصة اجتماعية بين رجل عربي وزوجته.[١٢]

كما تبرز صورة العربي البائس المنهار كإحدى أهم التمثيلات للانكسار في الرواية العربية؛ ذلك العربي الذي يكره العروبة لأنها ترادف الهزيمة والتخلف، يكره وجوده في بلاد العرب، ويكره كل ما يصله بالعروبة وابنائها. ومن أبرز الأعمال التي تظهر فيها هذه الصورة هي رواية (الدكتور ابراهيم) لكاتبها ذو النون أيوب، ويركز فيها على "التعمق في رسم صورة المثقف العربي في العراق في ذلك الوقت من الثلاثينات وتصوير أثر الاستعمار الإنجليزي في النيل من هذه الشخصية".[١٣].

تدور أحداث الرواية حول شخصية الدكتور إبراهيم الذي يتزوج من إنجليزية مثقفة ويقوم بوصف أحداث الثورة العراقية وصفاً دقيقاً إلا أنه ينظر إلى تلك الثورة على أنها متخلفة وانتهازية، ويعبر عن تلك الانتهازية بانتهازية المثقف العربي، حيث من المنطقي أن يكون المثقف العربي حاملاً لواء الثورة الشريفة التي تهدف إلى الانطلاق نحو التقدم لكنه يصدم برؤيته للمثقف العربي انتهازياً لا تهمه سوى مصلحته الشخصية، فيقرر أخيراً الانسلاخ من تلك الوصمة التي وصم بها، وصمة العروبة. يقول الدكتور إبراهيم "أبدو كأنني لست من العرب الهمج وأن أفراد أسرتي كلها أناس مهذبون أما الهمجية فهي صفة سواد الناس في بلاد العرب".[١٤] ويقول كذلك "لعنة الله على أبي أن كان سبب ولادتي في بلاد العرب وتسميتي عربياً، كم أود لو يكون في مقدوري أن أنزع هذا الجلد واستبداله بجلد أبيض كجلد هؤلاء الإنجليز وأكون واحداً منهم وكم أود لو يتبناني أحدهم ولكن هذا

مستحيل".[١٥] تصور الرواية المدى الذي تتوغل فيه الهزيمة في النفس، ويتمكن الانكسار من الذاكرة، إنها تعني النهاية، حيث لا أمل.

وجهٌ آخر ومغاير من وجوه الانكسار يظهر في الرؤية الاستشرافية 'الانهزامية' التي تجعل من هزيمة الحاضر بذرة لهزائم أخرى أشد وطأة وقسوة. تبرز هذه الرؤية بوضوح في رواية إسحاق موسى الحسيني (مذكرات دجاجة) الصادرة عام ١٩٤٣م. تستلهم الرواية من التراث فكرتها المبنية على قصة حياة دجاجة، وبذلك تقودنا لـ(كليله ودمنه)، وتحيل الدجاجة إلى عدة دلالات: فهي أنثى مغرية منتجة لكنها ضعيفة يسهل التغلب عليها باصطيادها ثم ذبحها وأكلها نهاية المطاف.[١٦]

لا تخطئ العين ما يرمي إليه الحسيني في روايته هذه، رغم أنه يؤكد في الصفحة الأولى من روايته أنه يتحدث عن قصة حقيقية لدجاجة عاشت في بيته.[١٧] ليست الدجاجة إلا فلسطين، وليست فلسطين غير مدخل لاحتلال الوطن العربي والاستيلاء على ثرواته ومقدراته. رؤية ذون النون هنا استشرافية للمستقبل كما سبق القول، لكنها رؤية مثقلة باليأس، فلا ترى المستقبل إلا مسرحاً لانكسارات أكبر وأوسع.

انكسار الذات: الغربة من الداخل

لم يكن التهديدُ الخارجي المؤرقَ الوحيد الذي انشغلت بها الرواية، كذاكرة لحالة الانكسار العربي، فقد مثلت الأوضاع الداخلية للبلاد العربي، وما شهدته المجتمعات من قمع وعنف، سبباً آخر في تكريس انسكار الذاكرة الروائية. وتمثل رواية (مأساة واق الواق) لكاتبها محمد محمود الزبيري إحدى المحاولات لتصوير ذلك الواقع المتأزم،[١٨] فقد أدت دعوة الإصلاح التى نمت عام ١٩٤٨م في اليمن إلى نفي الكثير من أتباعها، ومنهم الشاعر الزبيري، الذي أقام طيلة الخمسينيات في القاهرة وكتب فيها روايته. الزبيري في روايته هذه "مهموم بقضية وطن ومواطنين، لا يعرف العالم عنهم شيئاً وتظل هذه القضية تشغله طول رحلته".[١٩] يقول مصطفى عبدالغني: "تميزت هذه الرواية بالحس العالي للغربة، وهي غربة نابعة من رحلة البحث عن الهوية، إزاء الظلم والقهر الذي عاشه اليمن سنوات طويلة".[٢٠]

الغربة في رواية الزبيري ناتجة عن الشعور بانكسار الذاكرة، وهزيمة الذات في معركتها الثورية، هزيمة الوطن 'اليمن' في معركته ضد التخلف والاستبداد، هزيمة الوطن 'العروبة' في معركته مع الاحتلال والطغيان: " والواقع أن هذه الغربة تختلط فيها أحاسيس الوطن بالعروبة حتى ليصبحا حساً واحداً... وهو ما يبدو بوضوح في رواية الزبيري منذ مطلع الرواية".[٢١]

ما يميز رواية الزبيري أنها تصور واقع النفس العربية تغلغل فيها شعور الغربة، لكننا حين نقترب من فلسطين جغرافياً نجد عملين مهمين في تصوير وتفسير حالة الانكسار: (فتاة من فلسطين) لعبدالحليم عباس، الصادرة عام ١٩٤٩، وهي رواية مهمة لأنها "تتخذ من علاقة حسية بين فتى وفتاة – سامي وفدوى – وسيلة لرسم صورة الصراع ضد الصهاينة في إطاره لنكبة ٤٨، فعلى حين تحول العادات والتقاليد دون زواج الحبيبين، يحول التخلف الحضاري ولا سيما العسكري دون انتصار العرب".[٢٢] ورواية (مارس يحرق معداته) لعيسى الناعوري، المنشورة عام ١٩٥٥م، وكانت "نبتاً طبيعياً للمناخ الذي أدى إلى التشرد الكبير للفلسطينيين".[٢٣]

نهاية هذه الرواية تمثل منعطفاً مهماً في تصوير حالة الانكسار في الرواية العربية، ذلك أن أحداث الرواية مستلهمة من أسطورة رومانية تركز على صراع قائم بين قريتين إحداهما يسعى أهلها إلى الأرض بالخير، والأخرى يسعى أهلها إلى امتلاك الأرض بالشر، وينتهي الصراع بتدخل كبير الآلهة ليعقد بينهما أواصر الحب وليسود السلام. نهاية الصراع

تقود إلى سؤال مهم: فكيف يسود السلام والحب بين القريتين، وقرية الشر تهدفُ إلى سلب أرض ليست لها؟! لا شك أنه تحول جذري في الشعور العربي، حيث يبلغ الانكسار أعمق مدى له.

الرواية ومرارة الانفصال

مثل انفصال الوحدة العربية عام ١٩٦١م، خيبة جديدة في حياة العرب، بعد أن كان الأمل الذي أعادته الوحدة كبيراً، لكنه تحول ليصبح في فترة قصيرة من ولادته جرحاً جديداً، وانكساراً جديداً عبر عنه السوري أديب نحوي في روايته (متى يعود المطر).[٢٤] ويظهر من عنوانها أثر الخيبة والهزيمة حيث تتلخص في سؤال مضمونه: متى يعود المطر... لتعود الحياة لأمتنا. وعلى هذا الشكل تعبر الرواية عن الانفصال تعبيراً مراً بأشكال مختلفة، فبعضها يتطرق للوحدة بالرفض وبعضها بالنقد اللاذع وبعضها بالمعارضة. وظهرت أعمال كثيرة يلمع فيها بقوة ذلك الإحساس بالخيبة والانكسار، كما نجده في روايات من مثل (المنهزمون وشرخ في ليل طويل) لهاني الراهب، و(جيل القدر وثائر محترف) لمطاع صفدي، و(قلوب على الأسلاك) لعبدالسلام العجيلي. و(البرتقال المر) لسلمى الحفار وغيرها.

ويمثل غسان كنفاني مرحلة مهمة في تصوير الواقع الفلسطيني خلال فترة الستينات من القرن المنصرم، توجها بعدة أعمال لعل أهمها(رجال في الشمس) و(ما تبقى لكم) و(عائد إلى حيفا) وغيرها. ظهرت رواية (رجال في الشمس) في العام ١٩٦٣، لتتناول موضوع النكبة بصورة جديدة، تجعل من اللامبالاة سبباً مباشراً في وقوع النكبة واستمرارها، لذلك فهي تمثل "مرحلة في قصص كنفاني تفصح عن وضع الإنسان الفلسطيني، وقد مر بمحنة الحياة في عالم لا يجد فيه إلا من يعانده ويشعره بالغربة".[٢٥] تتلخص الرواية في محاولة ثلاثة من الفلسطينيين القيام برحلة شاقة عبر الصحراء بهدف العبور إلى الكويت أم لا في الحصول على عمل، ويلتقيهم بعد فترة عصيبة من السير أبو خيزران (سائق إحدى سيارات الصهريج) ويوافق على نقلهم عبر الحدود داخل الصهريج ثم يتبين أن أبا خيزران يعاني من عجز جنسي بسبب إصابته بجرح في حرب سابقة، "وهو ما يعطي الأحداث اللاحقة طابعاً عبثياً يضاف إلى الوضع المأساوي المؤلم الذي يحيط بالشباب الثلاثة داخل الصهريج ".[٢٦] يمر الصهريج من الحدود العراقية بأمان إلا أنه يتوقف في محطة الحدود الكويتية حيث تتأخر الإجراءات حين يأخذ موظف الجمارك في التهكم على أبي خيزران وعلاقته مع فتاته في البصرة. تمر لحظات مميتة يفتح بعدها أبوخيزران الصهريج ليجد ركابه الثلاثة جثثاً هامدة. وبحركة يائسة يحمل السائق جثث الشباب الثلاثة ويلقي بها فوق أكوام القمامة ويتركها هناك بعد أن يستولي على كل ما بحوزة الشباب، وهو يتساءل لمَ لمْ يقرعوا جوانب الصهريج قبل أن يصلوا إلى تلك النهاية.[٢٧]

تتشظى حالة الانكسار في رواية كنفاني هنا؛ فمن هروب الشبان الثلاثة من الوطن، مروراً بحالة العجز عن فعل شيء، المعبر عنها بعجز أبي الخيزران الجنسي، إلى النهاية المذلة التي تنتهي بموت الشبان في الصهريج ومن ثمّ إلقائهم على أكوام القمامة والمزابل. يبدو كنفاني في (رجال في الشمس) وكأنه يسجل شهادة للتاريخ على حالة انكسار لا يمكن للأيام أن تتجاوزها.

حزيران: هاوية الأمل وتشظي الذاكرة

يقول غالي شكري: "تترك الأحداث التاريخية الكبرى بصمات واضحة وظاهرة على كافة الأشكال الأدبية والفنون عامة .. إن الحروب والثورات الاجتماعية والصناعية

غالباً ما تهز الضمير الإنساني وتغير كثيراً من المفاهيم والقيم والأفكار السائدة وما كان متوازياً .. ولذا فان الظروف الجديدة لابد تنعكس على تقديم مضامين جديدة"[٢٨]

لذلك كانت هزيمة الخامس من حزيران "لحظة حاسمة في التاريخ المعاصر للأقطار العربية"،[٢٩] لحظة تركت بصمتها في كل شيء؛ فلقد جاءت بعد عدة صراعات داخلية وخارجية، كان آخرها فشل مشروع الوحدة العربية. وفي غمرة بحث الشعب عما يعيد تلك الوحدة جاءت النكسة لتكون قاصمة الظهر، التي أعلنت تلاشي الحلم العربي.

من المهم الإشارة هنا إلى الرؤية التي قدمها نجيب محفوظ في رواية (ثرثرة فوق النيل)، و"صور فيها ... موقف المثقفين من الهياكل الحاكمة، وكذلك عزلة هؤلاء المثقفين واغترابهم عام ١٩٦٦".[٣٠] لم يقف محفوظ عند تصوير طبقة المثقفين في روايته، لكنه استطاع تقديم نبوءة لحدث قريب، وكأنه يوجه تحذيراً من خطر داهم على الأبواب.

فالعوامة، التي تدور فيها أحداث الرواية حيث تلتقي الشخصيات وتدور الحوارات، سطح مضطربٌ على ظهر النيل، وهو ما يشير بصورة غير مباشرة إلى حالة الاضطراب التي تعيشها الأمة العربية، كما أن حالة الخدر التي تعيشها شخصيات الرواية المدمنة على المخدر تذكرنا بغيبوبة النخب وغياب دورها في في الإصلاح، ولعلها تشير إلى غيبوبة الثقافة نفسها. ثم تأتي الجريمة في خاتمة الرواية، وكأنها تقدم نبوءة لحدث جلل، مثل لها محفوظ بجثة الفلاح المصري.[٣١]

يمكن القول إن النكسة كانت أقسى الصدمات التي تركت وشومها في الذاكرة العربية، ومن الطبيعي أن تحضر الرواية لتؤرخ لهذا الحدث بطريقتها الخاصة. فلقد "كانت الهزيمة من العنف بحيث هزت الوجدان الروائي بعنف شديد، فجاءت استجابته، المتأخرة، استجابة (عاطفية) أكثر منها (عقلية)، وفي حين كان رد الفعل الجماهيري عفوياً وتلقائياً، كان على الرواية العربية أن تسقط في أحبولة الإحباط دون أن تحاول الخروج برؤية إيجابية لما حدث".[٣٢]

ويشير روجر آلن إلى الازدياد الملحوظ في عدد الروايات الصادرة بعد النكسة؛ "فمن الناحية الكمية الخالصة توضح المقارنة بين السنوات الست السابقة على الهزيمة والسنوات الست التالية لها ازدياد الإنتاج الروائي العربي بشكل ملحوظ".[٣٣] حيث تجاوز المعدل الروائي بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٣ سبعاً وعشرين رواية لكل سنة تقريباً، بعد أن كان معدل الروايات العربية الصادرة من عام ١٩٦١ إلى عام ١٩٦٦ خمس عشرة رواية لكل سنة. أي أن عدد الروايات تضاعف تقريباً في السنوات الست التي تلت الهزيمة إلى (١٦٢) مقابل (٩٢) رواية في السنوات الست التي سبقت الهزيمة.[٣٤]

وعند النظر إلى المضامين نلاحظ أن هزيمة حزيران أضافت إلى "الصراع العربي الإسرائيلي بطريقة مباشرة وجذرية أبعاداً متعددة على المستوى الاجتماعي والصعيدين العربي والدولي. فقد كشفت هزيمة حزيران عن التحلل والعطب في العلاقات الاجتماعية والقيم السائدة وفي المؤسسات الاقتصادية والبنى الثقافية .. وأبرزت بجلاء ضرورة الفهم العميق للواقع العربي وحركته التاريخية وعلاقاتها بالغرب الرأسمالي التي لم تكن الهزيمة إلا نقطة تقاطع بينهما".[٣٥]

كانت الهزيمة الموضوع الأساسي الذي طغى على معظم أعمال تلك الفترة، لكن طرق المعالجة اختلفت من عمل لآخر، فقد "نظر إليها البعض بأنها هزيمة عسكرية بحتة (فارس مدينة القنطرة، قارب الزمن الثقيل) ورأوا أن الهزيمة ما كانت لتحدث لولا بعض الأخطاء العسكرية"،[٣٦] فيما عدها آخرون نتيجة طبيعية لما ساد من كبت للحريات واضطهاد المفكرين والأدباء، على نحو ما نجده عند عبد الرحمن منيف في رواية (الأشجار واغتيال مرزوق)، وعند بهاء طاهر في روايتي (شرق النخيل)، و(قالت ضحى) وعند

حليم بركات في (عودة الطائر إلى البحر). وحاول بعض الكتاب رسم خارطة طريق لتجاوز تلك المحنة بعقلانية أكثر، على نحو ما نجده عند الكاتبة خنانة بنونه في روايتها (النار والاختيار).

يستنجد عبد السلام العجيلي في روايته (فارس مدينة القنطرة)[٣٧] بالتاريخ العربي الأندلسي ليصور هزيمة حزيران، ويستطيع القارئ لمس ذلك من خلال ربط السياقات داخل الروايـة بالأحداث الخارجية، فسقوط القنطرة مثلاً في الرواية يذكر بسقوط مدينه القنيطرة السورية بأيدي الصهاينة، كما أن الكاتب يحاول "إحداث توازن بين هزيمة العرب في الأندلس وضياع مدنهم وبين هزيمتهم في الخامس من حزيران عام١٩٦٧، وإذا صح ما يقصده الكاتب من تواز فإن المرء يستطيع أن يعيد أحداث الرواية وشخصياتهم الذين يختفون وراء أسماء تاريخية إلى أصولهم الواقعية الحية"،[٣٨] وتتلخص أسباب الهزيمة في الرواية في التواطؤ والجاسوسية والخديعة.

أما في رواية (الأشجار واغتيال مرزوق) [٣٩] لعبد الرحمن منيف فنجد أن بطل الرواية منصور عبد السلام يمثل حالة نموذجيه للمثقف العربي الذي عاد من أوروبا ليشارك في صنع الهزيمة. "لقد كانت قضية البطل، قضية أستاذ الجامعة، هي: كيف يعيش في هذا العالم الذي افتقد، رغم الهزيمة، روح الحرية والسماحة؟ وكيف تواءم هذا العالم مع آلة القهر التي لا تريد ان تتوقف".[٤٠] ولا تختلف روايتا بهاء طاهر (شرق النخيل)[٤١] و(قالت ضحى) [٤٢] عن رواية منيف كثيراً، فهما تعكسان لنا آثار الهزيمة، كما تعسكان لنا انحسار المد العربي سواء في مناخ الإرهاب و التضييق واستفحال الفهم الخاطئ في قضية فلسطين. وتعدد رواية (عودة الطائر إلى البحر)[٤٣] لحليم بركات عوامل الانكسار العربي، التي تتلخص من وجهة نظر الرواية في الجهل والتخلف والتشتت وعدم التنظيم والاضطهاد الفكري والكذب السياسي وغياب الديمقراطية وغيرها، وهو ما يؤكد أن الرواية ليست إلا "رد فعل رومانسي حزين على الهزيمة-١٩٦٧- أو مرثية دامية لما حدث".[٤٤] وتمثل مجموعة (الغد والغضب) [٤٥] للكاتبة خناتة بنونه نموذجاً مهما في كيفية التعامل مع النكسة، فهي تؤكد "الأثر العميق الذي خلفته الهزيمة في نفوس المثقفين العرب القريبين والبعيدين عن الساحة الساخنة"،[٤٦] وتحاول تصوير الهزيمة وأسبابها ورسم طرق تجاوزها من خلال بطلة الرواية (ليلى).

تصور الحالة النفسية المتدنية للبطلة (ليلى) مدى أثر الجرح البالغ في نفوس الناس من الهزيمة، فليلى في الرواية تصرخ وتشتم وتبكي وتتهم الجميع، لكنها لاتقف عند هذا الحد مكتفية باليأس، بل تحاول وضع حل لتجاوز هذه الهزيمة بالاهتمام بالأجيال القادمة وتوعيتها على أخطاء الماضي وحقنها بالمشاعر الثورية وتفتيح أذهانها بالعلم والمعرفة على أخطار الزمان والمكان، لذلك تقرر أن تترك وظيفتها كمذيعة وتتجه لمجال تعليم الأطفال في إشارة إلى ضرورة التنبيه إلى هذا الحل.[٤٧]

النماذج على أثر هزيمة حزيران في الرواية العربية كثيرة جداً، منها (أخبار عزبة المنيسي) لمحمود يوسف العقيد، و(الفهد) لحيدر حيدر، و(طواحين بيروت) لتوفيق عواد، و(على الدنيا السلام) لذو النون أيوب، و(سداسية الأيام الستة) لإميل حبيبي وغيرها. الملاحظ على الأعمال التي تم تسليط الضوء عليها أنها تستمد وجودها من حالة الانكسار التي كانت الدافع الأساسي خلف ظهورها، كما كانت حالة الانكسار مادتها التي تناولتها بالمعالجة بكل مشاعرها وآلامها وجراحها.

النتائج والتوصيات

لعل الصفحات الماضية أوضحت العلاقة بين تطور الرواية العربية وتعمّق حالة الانكسار العربية نتيجة للخيبات المتعاقبة، إذ مثلت الهزائم دافعاً مهماً من دوافع نشوء الرواية ونموها ونضوجها في الوطن العربي. من هنا يمكن القول إن الرواية العربية هي الذاكرة الرسمية للانكسار، لا ينافسها في ذلك أي من الفنون الأدبية الأخرى. وبذلك يمكن أن توفر الرواية سجلاً مهماً لدراسة وتحليل الآثار التي تتركها الانتكاسات السياسية على المجتمعات العربية، مما لا تدركه كتب التاريخ والتوثيق السياسي.

لقد أظهر التحليل انشغال الخطاب الروائي بتردي الأحوال في العالم العربي خلال النصف الثاني من القرن العشرين. وقد جاءت صور التعبير عن هذا التوتر متنوعة ومختلفة باختلاف الحدث السياسي، لكنها في المجمل ترددت بين الغضب، والأسى، واليأس الذي لا يرى في القادم المجهول غير مزيد من الخيبات والهزيمة. من هنا صح أن نقول إن الانكسار كان أهم سمات الرواية التي تمثل في ذاتها ذاكرة لعصر من الانكسارات العربية.

Abstract

Frustration's Memory & Memory's Frustration: A Study in the Relationship between Political Events and the Development of Arabic Novel

By Adel Khamis Alzahrani

This paper studies the influence of the consecutive political events, since the contact with the West, on the constitution and development Arabic novel. The research attempts to discribe and analyse the relationship bewteen the Arabs' political defeats and disppointments and the floursihng of the newborn Arabic literary art. This relationship resulted in Arabic narritive falling in a state of despair; Arabic novel has become a memory of frustration in modern Arabic history. It embodied an equivalent discourse that showed the reactions of Arabic societies toward the frequent defeats. It als revealed how frustration and despair dominated the intellectual and litearry scenes in Arabic countries. The paper survyes a number of works written by novilsts from different parts of the Arabic world, reflecting on political, economic and military developments in the region. It also highlights the opinions of several critics and theorists of Arabic novel around the issue.

Keywords: Arabic novel, memory, discourse, political events, frustration.

الهوامش

[١] **الطهطاوي، رفاعة.** تخليص الابريز في تلخيص باريز. **القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.**

[٢] **الن، روجر.** الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية. **ترجمة: حصة ابراهيم المنيف، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧، ص٤٣.**

[٣] **النساج، سيد حامد.** بانوراما الرواية العربية الحديثة. **بيروت: المركز العربي للثقافة والعلوم، ١٩٨٢م، ص٢٣.**

[٤] الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية، **ص٦٠.**

[٥] بانوراما الرواية العربية الحديثة، **ص٢٥٣.**

[٦] **عبد الغني، مصطفى.** الاتجاه القومي في الرواية العربية. **ط٢، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص٤٠.**

[٧] **المرجع السابق، ص٤١.**

[٨] بانوراما الرواية العربية الحديثة، **ص٩٣.**

[٩] **الجابري، شكيب.** نهم. **حلب: المطبعة العالمية، ١٩٣٧.**

[١٠] بانوراما الرواية العربية الحديثة، **ص١١٥.**

[١١] **السيد، محمود أحمد.** جلال خالد. **بغداد: دار السلام للطاعة والنشر، ١٩٢٨.**

[١٢] **المسعدي، محمود.** مولد النسيان. **تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.**

[١٣] الاتجاه القومي في الرواية العربية، **ص٤٣.**

[١٤] **ذو النون، أيوب.** الدكتور إبراهيم. **الموصل: ١٩٣٩، ص١٦٥.**

[١٥] **المرجع السابق، ص١٧٢.**

[١٦] **الحسيني، موسى.** مذكرات دجاجة. **القاهرة: دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٣.**

[١٧] **المرجع السابق، ص١٠.**

[١٨] **الزبيري، محمد محمود.** مأساة الواق واق. **ط٢، بيروت: دار الكلمة، ١٩٧٨.**

[١٩] **المرجع السابق. من مقدمة عبدالحميد إبراهيم، ص ش.**

[٢٠] الاتجاه القومي في الرواية العربية، **ص ٦٨.**

[٢١] **المرجع السابق، ص ٦٨.**

[٢٢] **المرجع السابق، ص ٧٤.**

[٢٣] **المرجع السابق، ص ٧٥.**

[٢٤] **نحوي، أديب.** متى يعود المطر. **بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٠.**

[٢٥] **خليل، إبراهيم.** في القصة والرواية الفلسطينية، **عمان: دار ابن رشد للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م، ص١٠٣ وما بعدها.**

[٢٦] الرواية العربية: مقدمة تاريخية نقدية، **ص١٠٨.**

[٢٧] **كنفاني، غسان.** رجال في الشمس. **قبرص: دار منشورات الرمال، ٢٠١٣.**

[٢٨] **ماضي، شكري.** انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية. **بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٨م، ص٢١.**

[٢٩] الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية، **ص٩٤.**

[٣٠] **المرجع السابق، ص٩٣.**

[٣١] **محفوظ، نجيب.** ثرثرة فوق النيل. **القاهرة: دار الشروق، ١٩٦٦.**

[٣٢] الاتجاه القومي في الرواية العربية، **ص١٥٤.**

[٣٣] انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية، **ص٣٥.**

[٣٤] **المرجع السابق، ص٢٧.**

[٣٥] **المرجع السابق، ص٤٠.**

[٣٦] **المرجع السابق، ص٤١.**

[٣٧] **العجيلي، عبدالسلام.** فارس مدينة القنيطرة. **طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤.**

[٣٨] **المرجع السابق، ص٤٩.**

[٣٩] **منيف، عبدالرحمن.** الأشجار واغتيال مرزوق. **بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤.**

[٤٠] الاتجاه القومي في الرواية العربية، **ص١٥٦.**

[٤١] **طاهر، بهاء.** شرق النخيل. **بيروت: دار الآداب، ١٩٨٥.**

[٤٢] **طاهر، بهاء.** قالت ضحى. **بيروت: دار الآداب، ١٩٨٥.**

[٤٣] **بركات، حليم.** عودة الطائر إلى البحر. **بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩.**

[٤٤] **المرجع السابق، ص١٦٣ وص١٦٣.**

[٤٥] **بنونه، خناتة.** الغد والغضب. **ط٢، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٩١.**

[٤٦] انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية، **ص٧٩.**

[٤٧] **المرجع السابق، ص٧٩.**

قائمة المراجع

- آلن، روجر. (١٩٩٧). الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية. ترجمة: حصة إبراهيم المنيف، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- بركات، حليم. (١٩٦٩). عودة الطائر إلى البحر. بيروت: دار النهار للنشر.
- بنونه، خناتة. (١٩٩١). الغد والغضب. ط٢، بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- الجابري، شكيب. (١٩٣٧). نهم. حلب: المطبعة العالمية.
- الحسيني، موسى. (٢٠٠٣). مذكرات دجاجة. القاهرة: دار المدى للثقافة والنشر.
- خليل، إبراهيم. (١٩٨٤). في القصة والرواية الفلسطينية. عمان: دار ابن رشد للنشر والتوزيع.
- ذو النون، أيوب. (١٩٣٩). الدكتور إبراهيم. الموصل: أم الربيعين.
- الزبيري، محمد محمود. (١٩٧٨). مأساة الواق واق. ط٢، بيروت: دار الكلمة.
- السيد، شفيع. (١٩٩٦). اتجاهات الرواية العربية في مصر منذ الحرب العالمية الثانية إلى سنة ١٩٦٧م. ط٣، القاهرة: دار الفكر العربي.
- السيد، محمود أحمد. (١٩٢٨). جلال خالد. بغداد: دار السلام للطاعة والنشر.
- شكري، عزيز ماضي. (١٩٧٨). انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- شكري، غالي. (١٩٨٠). معنى المأساة في الرواية العربية. ط٢، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة.
- طاهر، بهاء. (١٩٨٥). شرق النخيل. بيروت: دار الآداب.
- طاهر، بهاء. (١٩٨٥).قالت ضحى. بيروت: دار الآداب.
- الطهطاوي، رفاعة. (١٩٩٣). تخليص الابريز في تلخيص باريز. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- عبدالغني، مصطفى. (١٩٩٨). الاتجاه القومي في الرواية العربية. ط٢، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- العجيلي، عبدالسلام. (١٩٨٤). فارس مدينة القنيطرة. طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع.
- فضل، صلاح. (١٩٩٨). عين النقد على الرواية الجديدة. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر.
- كنفاني، غسان. (٢٠١٣). رجال في الشمس. ط٣، قبرص: دار منشورات الرمال.
- محفوظ، نجيب. (١٩٦٦).ثرثرة فوق النيل. القاهرة: دار الشروق.
- المسعدي، محمود. (١٩٨٤). مولد النسيان. تونس: الدار التونسية للنشر.
- منيف، عبدالرحمن. (١٩٧٤). الأشجار واغتيال مرزوق. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- نحوي، أديب. (١٩٦٠). متى يعود المطر. بيروت: دار الطليعة.
- النساج، سيد حامد. (١٩٨٢). بانوراما الرواية العربية الحديثة. بيروت: المركز العربي للثقافة والعلوم.
- وادي، فاروق. (١٩٨١). ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات واالنشر.